الفصل التاسع

الإسلام والعلمانية

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والعلمانية

إن مايعرف بالعلمانية العربية ليست في حقيقتها سوى أنواع حديثة من العمل الفكري الهادف لبناء المجتمعات العربية الإسلامية. ومهما يكن الإيمان الداخلي في قلب صدّام حسين فإنه في الظاهر كان يعير الأسلمة جانباً كبيراً. فقام برسم عبارة (الله أكبر) على العلم العراقي، وكان يطلق أسماء إسلامية على المعارك التي يخوضها العراقيون. ثم وبعد دخول جنود الغرب إلى الأراضي العراقية أصبح البعثيون العراقيون السابقون كياناً مقاتلاً يطلق على نفسه اسم الجماعة الإسلامية، ويرفع شعارات إسلامية.

والحقيقة فإن الأخطاء والهفوات التي يقع فيها الإسلاميون، نكتشف أنّ العلمانيين العرب ينتبهون إليها ويمتلكون وعياً ونضجاً يجعلانهم لايقعون فيها. فمن عيوب الإسلاميين أنهم يناقشون قضايا عظيمة بواسطة وسائل شديدة البساطة والسذاجة. ومثالنا الشارح لهذا الرأي هو حدث في السويد: إذ كان من ضمن مشاريع التقريب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين في إحدى المدن أن نظمت الكنيسة المسيحية بالاتفاق مع أئمة المساجد أسبوع حوار وتقريب يتضمن لقاءات وندوات وزيارات ومباراة رياضية، وقبل أن تبدأ المباراة بكرة القدم انسحب فريق المسلمين واحتجّ على مشاركة راهبات مسيحيات في تلك المباراة، وتحدث أحد أئمة المشايخ عن سبب توقف مشروع التقريب كله وقال: قد تحدث في المباراة ملامسة بين اللاعبين وتتسبب في تأجيج مشاعر لاعبينا، ويقصد بتلك العبارة خشيته من أن يثار اللاعبون من ملامسة النساء أثناء اللعب. وفي تلك الحادثة أثبت أولئك المسلمون تخلفهم وعدم قدرتهم على إجراء المحاورة الحضارية الناضجة.

إنّ الأحزاب العلمانية العربية هي أكثر تطوراً ونضجاً من الجماعات الإسلامية، وأقدر منها على العمل والحركة والحوار.

فالأحزاب الشيوعية العربية التي كثرت في العقود الماضية لايمكن أن نفصلها عن الجسد الإسلامي، فأغلب أعضائها كانوا من المسلمين وقسم منهم متدينون أو مؤمنون، وإن شعارات كافة هذه الأحزاب ظلّت على الدوام تسعى للتطوير والتقدم

obeikandl.com

ومناهضة الاستعمار والقوى المعتدية وتعمل على إقامة نوع من الوحدة، وعلى التحرر وبث الديمقراطية. وإن كافة هذه المبادئ والأهداف تنحصر في بناء وتطوير المجتمع العربي والذي هو إسلامي بالطبع.

الجماعات الفلسطينية التي كانت توصف بالعلمانية (فتح والشعبية والديمقراطية) لم تتجاوز يوماً متطلبات النهج السياسي الإسلامي. بل كان خطابها يتفق مع الإسلام وكان خطاب ياسر عرفات إسلامياً متشدداً.

وفي تركيا كان الإسلاميون أكثر وعياً من نظرائهم العرب، فقد سار حزب الرفاه بمنطق الوعي الحضاري والعلماني. واضطرّ لتبديل اسم الحزب ثلاث مرات. وإلى تغيير زعيم الحزب عدة مرات أيضاً وسارت القافلة الإسلامية بتطور وأمان، وهذا ماكان يسعى إليه زعماء الحزب الإسلامي هناك. فلم يكن الهدف شخصياً بل كان الهدف تطوير الأمة الإسلامية، ونتيجة لفكرهم السليم فإن المؤيدين لهم في تركيا اليوم يعادلون نسبة ٧٠ ٪ من الأتراك.

العلمانية الغربية

تعلن العلمانية البريطانية عن نفسها بأنها متصالحة مع الدين وحافظة لكافة الحريات التي يتطلبها أصحاب كل دين. وفي فرنسا تنصّ كافة القوانين والمواثيق الدولية التي وقّعت عليها فرنسا على حرية الاعتقاد والفكر وحرية إظهار الدين عن طريق العبادة والتعليم والممارسة.

يتوهم الكثير من المسلمين من كلمة العلمانية، ويربطونها بالمعنى الإلحادي أو التجرد من القيم، وماذلك إلا وهم ورؤية ضعيفة لها.فالعلمانية الأوروبية تضمن استقلالية الدين عن الدولة وتمنحه فرصة الحركة بحرية وتضمن له بقوانينها حماية واستقلالية. ويتوجب على المسلم الغربي ألا يفصل نفسه عن العلمانية، بل يرتبط ويوثق علاقته بها.من خلال مؤسساتها العديدة. والعلمانية بصفتها الحالية في دول الغرب تعدّ فرصة سانحة للمسلمين لنشر ديانتهم في أوساط الغرب المتعددة الأديان.

وكما نشهد في السنوات الأخيرة فإن بعض القوانين والمباديء الغربية يتم تغييرها أو تعديلها للحيلولة دون انتشار الإسلام، وقد جاء ذلك نتيجة لعدم تصالح المسلمين مع العلمانية الغربية. وعمل الغرب على تضييق الخناق على النشاط الإسلامي ولمنع بروزه كحلّ فكري وفلسفي، وقد تصل بنا تلك الحال إلى مرحلة يمنع فيها أي نشاط فكري إسلامي منعاً تاماً، كما هي الحال في الصين مثلاً. ومن هنا تبرز ضرورة المصالحة مع الغرب ومع علمانيته، والتوقف عن مواجهتها.ولاينحصر ذلك الدور بالحركات الإسلامية فحسب بل بالأفراد المسلمين عموماً.

لم يعرف الإسلام طوال مسيرته التاريخية أية مصادمة مع العلمانية، مثلما تصادمت المسيحية مع العلماء في العصور الوسطى. بل إن الإسلام أنتج العلوم والعلماء وأغنى نظريات الفكر والفلسفة والاجتماع وغيرها.والعلمانية الغربية التي تحكم وفقها الأنظمة ليست سوى القوانين المسيّرة للمجتمعات والضابطة لحقوق الأفراد.

وبالنظر الدقيق وبالمحاكمة العقلية نكتشف أن كثيراً من القضايا التي تطرحها العلمانية الغربية هي لصالح المسلمين أنفسهم، فقوانين منع الحجاب في بعض المدارس الأوروبية إنما هو يحمي المسلمين أنفسهم من أخطار قد يواجهونها مثل عدائية وعنصرية الآخر.فقد جاءت قوانين حظر الحجاب ضمن مباديء عامة يتم بموجبها حظر الرموز الدينية التي تسبب العنصرية والطائفية والإثنية، والتي تقسّم المجتمع العام إلى فئات، ففي فرنسا وضمن هذا القانون يمنع في المدارس ارتداء الرموز الدينية الكثيرة ومنها الصليب والقبعة اليهودية ورموز أخرى بوذية ووثنية.

فهذا القانون يتعامل مع المسيحية بنفس طريقة تعامله مع الإسلامية. وفي هذا عدل قانوني. ويذكر أن الخطوط الجوية الفرنسية تحظر على موظفيها حمل الرموز الدينية أيضاً.فقد وافق جميع الفرنسيين على تلك القوانين ووقف المسلمون وحدهم معارضين لها، ومنشغلين بها، حتى أن الرئيس الليبي تدخل في قضية طالبتين فرنسيتين، وفي كل يوم مازال المسلمون ينشغلون بمعالجة هذا الموضوع الثانوي. والحرية في المنظور الإسلامي هي تعبير عن نضج روحي يكمن في داخل الإنسان. ويتحكم في أنانيته. وهي ترتبط بموضوع الوعي بالذات ومعرفة النفس. وهي

موضوعات تزيد من قوة الإيمان. وتتبدى الحرية عند المسلمين كلما ازداد إدراكهم للإسلام نفسه وكلما تعمقت معرفتهم بدينهم. فتصبح هذه المعرفة ضرورة لتحقيق أمن المسلم وحريته. وهذه المعرفة ممكنة لكافة مسلمي العالم، وممكنة أيضاً داخل الدول الغربية العلمانية، ومن هنا فالحرية لاتتطلب من المسلمين مطلقاً أن يقفوا في مواجهة الأنظمة العلمانية بحجة تحقيق الحرية الذاتية. لأن المواجهة ستقلل من حريتهم المتاحة والمتوفرة.

تحالف اليسار الغربي مع الجهاد الإسلامي

تعزّز في السنوات الأخيرة عقد التحالفات ما بين الإسلامويين واليسار الغربي، استناداً على رفضهما المشترك للرأسمالية والإمبريالية الغربية. وليست هذه التحالفات إلاّ وهمية ومبنية على المصالح المشتركة. وهي بنفس الوقت ماكانت لتحدث لولا قناعة أتباع الفريقين بالتقارب الأيديولوجي والفكري في بعض نقاطه بين ثقافتيهما.

وقد جرى الحديث منذ قرون عن الحوارات بين العلمانية والإسلاموية. وإنّ الاعتداءات التي قامت بها جماعات إسلاموية ضدّ جنود أمريكيين وحلفائهم في جميع أنحاء العالم عادت على الجماعات الإسلاموية بالمزيد من تعاطف الجماهير العلمانية. ووجدت كذلك قبولاً لدى ناقدين من معسكرات إيديولوجية مختلفة لا تزال مصرّة على رفض السمات السلطوية الموسومة بطابع الشرطة العالمية لهذه الجيوش. لكن مما يلفت النظر أيضا أنّ هناك تقارباً في أماكن كثيرة ما بين قوى إسلاموية ومجموعات سياسية يسارية عديدة، وتعكس هذه التقاربات مرونة خاصة عند المتطرفين لم نكن لنتوقعها.

جبهة جديدة ضد الإمبريالية

يبدو أنّ المجموعات السياسة اليسارية تعتقد بأنّ القاعدة والإخوان المسلمين وحزب الله وحماس يشكّلون كلّهم جبهة جديدة معادية للإمبريالية، قامت الآن

لتكمل المشروع التاريخي لليساريين الغربيين. فعلى الرغم من أنّ هذه الحركة المركبة من خلال أفراد تعاني في نظر الأوساط اليسارية والاتجاهات الثقافية من "وعي خطأ"، إلاّ أنّها تعتبرها مع ذلك جديرةً بالدعم نظراً لدورها في محاربة الأمبريالية الأمريكية. وفجأة أصبح الكثير من أعضاء المجموعات اليسارية الانقسامية الذين كانوا يتظاهرون ضدّ الحرب على العراق أصبحوا اليوم حلفاء لهذه المنظّمات الإسلامية.

الإسلام والإشتراكية

حتّى وإن لم يكن السوفييت يعتبرون الإسلام طيلة عقود من الزمن تقدّميًا في جوهره، فقد كانوا ينظرون إليه على أنّه قابل لتأويل اشتراكي. وإنّ بعض الكتب التعليمية، التي كانت تستخدم في جامعات ومدارس عالية في اليمن وغيرها. وذكر فيها أنّ القرامطة مارسوا اشتراكية في جمع المحاصيل والعوائد الحكومية وأنّ توزيعها كان يتمّ بالتساوي على الأفراد المسلمين آنذاك.وهذا الطرح الفكري هو تماس حقيقي بين الإسلام والاشتراكية. فكانت هذه الكتب تعرض الإسلام كشكل قديم من أشكال الاشتراكية. وقد حدث تماس مشابه ما بين التراث الإسلامي واشتراكية الدولة الحديثة في الجمهوريات المسلمة الست التي كانت موجودة في الاتحاد السوفييتي.

صراع الإسلامية مع الشيوعية

الأحوال تغيّرت تمامًا، كما يبدو، في النصف الثاني من القرن الـ٢٠. إذ أصبحت الجماعات الإسلاموية تشكّل جبهة صريحة مشتركة ضدّ الشيوعية والاشتراكية والليبرالية وكذلك ضدّ تصوّراتهم للقيم، وأخيرًا وليس آخرًا ضدّ حقوق المرأة.

وفي فترة تأسيس جماعة الإخوان المسلمين ١٩٢٨ تمّ تصنيف الاشتراكية بكلّ أشكالها كرأس من الرؤوس الكثيرة لأفعى الهيدرا الغربية-العلمانية.

فقد قام في الحرب الأهلية الإسبانية فرانشيسكو فرانكو باستخدام عشرة آلاف من الجنود المرتزقة المغاربة، من أجل محاربة الجمهورية الإسبانية، وكانت حجّته أنّ الشيوعية هي عدوّ مشترك للكاثوليكية وللإسلام.

وعلى تلك الحال استمرّت الأوضاع حتّى عام ١٩٤٥. حيث نشب بين الحركات الشيوعية والإسلاموية في مصر بعض المعارك الدموية التي استمرّت حتّى ثورة ١٩٥٢. لقد أدّت كراهية السعودية لمصر بزعامة جمال عبد الناصر وللنفوذ السوفييتي في الشرق الأدنى إلى دفع الساسة السعوديين في ذلك الزمن إلى تقديم الدعم لمنظّمة المؤتمر الإسلامي كحلف معادٍ للاشتراكية.

وفي التسعينيّات توّج هذا الاتجاه العام بحملة دعائية هدفها إسكات الأصوات اليسارية والليبرالية المستقلة. فقد تمّ في عام ١٩٩٢ اغتيال الكاتب والسياسي فرج فودة.

وفي عام ١٩٩٤ تعرّض الكاتب المصري نجيب محفوظ لحادث اعتداء بسكيّن - وكان الدافع من وراء ذلك الحادث هو على ما يبدو موقف نجيب محفوظ المنفتح والمتسامح من الدين الذي نجده في مجموعته الروائية "الثلاثية ". أمّا الكاتب والفيلسوف نصر حامد أبو زيد الذي أقدم بجرأة على تطبيق الأساليب التاريخية والفلسفية لتحليل النصوص على القرآن ونصوص أخرى من الحديث المأثور، فقد تلقّى العديد من التهديدات بالقتل إلى أن انتقل في آخر المطاف إلى المهجر في عام ١٩٩٥.

وتمت في العام ١٩٦٥ في إندونيسيا إبادة اليسار بشكل لا سابق له، تقريبًا من دون ملاحظة أو على الأقل من دون أن يسجّل ذلك في سجل التاريخ الخاص بالحركة الإسلاموية. ولا بدّ الآن من إتمام هذه النبذة التاريخية المحزنة من خلال تسليط الضوء على أحداث الساعة التي تقع في بلدان أو أجزاء من دول يتزايد فيها انتشار نفوذ الإسلامويين. من الممكن من دون شكّ أن يطلق اسم الرجعية على المواقف التي

يتّخذها الإسلاميون في يومنا هذا من حقوق المرأة وحقّ التعبير الحرّ عن الرأي والحقوق الخاصة بأقليّات أخرى.

وتمثل الصدام الرئيسي مع الشيوعية في الحرب الجهادية التي أطلق الإسلاميون عليها اسم حرب تحرير أفغانستان من الهيمنة الروسية الاشتراكية. واستقطب المجاهدون آنذاك عشرات الآلاف من المجاهدين الإسلاميين الذين أتوا من بقاع العالم المختلفة. وقامت بدعم تلك الحرب رسمياً الإدارة الأمريكية وبعض الدول الإسلامية، وبالفعل فقد أنهك الجهاديون القوات الروسية وأجبروهم على الانسحاب من أفغانستان. وكانت تلك أول خطوة خلفية يتراجع فيها السوفييت ومعسكرهم الاشتراكي.

الطروحات النهضوية

الجدل الحضاري مع الغرب أوجد في واقعنا الثقافي تيارات مقلدة له، ومتمذهبة ببعض مذاهبه الفلسفية والسياسية، كما أن التيار الإسلامي القائم على فكرة التأصيل والعودة إلى الذات الثقافية، لم ينتج قراءة واحدة لتراثه الفكري بل أنتج قراءات تختلف في انتقاء المقومات التراثية الكفيلة بتحقيق النهضة.

ورغم تعدد الإجابات وتنوع الأطروحات النهضوية فإن الوضع العربي اليوم ما زال سواء من الناحية الثقافية أو من الناحية المجتمعية– مختلاً مأزوماً، ومن ثم ما زال سؤال النهوض يعبر عن مطلب لا عن واقعية.

هل يرجع الفشل إلى خلل في الإجابات؟ أم أن سؤال النهضة لا يتطلب أجوبة نظرية فقط، بل أيضاً أفعالاً منظورة وممارسة تغييرية واقعية؟

وهنا نكرر ذلك السؤال الذي مازال يطرح منذ مطلع القرن العشرين، وهو: "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟"، فقد بدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر، كمشروع إصلاح فكري وانقلاب تحديثي، وسمّي ذلك العهد باسم النهضة.

والنهضة يجب أن تشمل الاصلاح في المجتمعات الإسلامية فلايمكن استخدام مصطلح النهضة بدون العمل ببرامج إصلاح، إذ لابد للمؤسسة الدينية من قبول العمل بهذا الإصلاح.

إن الاختلال يكمن في المقاربة المذهبية الجاهزة لسؤال النهوض، إذ تنزع التيارات الفكرية السائدة في واقعنا الثقافي إلى اتخاذ مرجعياتها المذهبية الجاهزة أفقاً وسقفاً لمطلب النهوض.

فالتيار الليبرالي مثلاً يرى أن النهضة لا تتحقق إلا بتطبيق الليبرالية، والتيار اليساري الاشتراكي يرى أن لا نهضة إلا بالاشتراكية، والتيار الفكري الإسلامي في نموذجه السلفي مثلاً يرى أن لا نهضة إلا بإعادة إنتاج نفس مواصفات الاجتماع الإسلامي الذي تجسد في لحظة تاريخية ماضية (اللحظتين النبوية والراشدية).

إن النهوض في عالمنا العربي الإسلامي لن يتحقق خارج إطار ذاتيتنا الثقافية الإسلامية هذه. ولايبرر تقليد لحظة من لحظاتنا الماضية وإعادة إنتاجها، كما تنزع إلى ذلك بعض توجهات الفكر السلفي عندما تدعو إلى استنساخ، ليس أفكار ومبادئ العصر الإسلامي الأول، بل استنساخ حتى ديكور الحياة وشكلها في اللباس وطرائق المعاش وحتى كلمات الحوار نفسها.

إن اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) والاسترشاد بهدي القرآن الكريم لا يكون إلا باتباع المبادئ والمحددات الفكرية العامة، وليس باستنساخ صورة الحياة حتى في شكلها المادي، كما يرى هذا التيار السلفي الذي وسع من مفهوم البدعة المذمومة ليشمل كل مستحدث ومستجد. ولابدّ من التذكير بأن السلفية كانت قد حرّمت على الملك السعودي استخدام التلغراف والهاتف وغيرها من التقنيات التي اعتبرتها آنذاك شيطانية تخالف الإسلام.وهذا يدل على استمرار السلفية بالتخلف عن الحاضر الذي تعيشه، إذ هي ستوافق في المستقبل على تحليل ماتحرّمه اليوم.

كما أن النهوض لن يتحقق باستنساخ نموذج ثقافي ومجتمعي غربي، لأن ذلك يخالف محددات هويتنا، ويفترض بنفس الوقت الاستفادة من النموذج الغربي وتسخير منجزاته لتحقيق النهضة الإسلامية.

إن التفكير في النهضة من مدخل مذهبي جاهز يعتبر عائقاً أمام حركة النهوض، وليس حافزاً لها. بل إن الخلل الأكبر في فهم ماهية النهضة يكمن في هذه النظرة المذهبية التي سقطت في فخها كل مشاريع النهوض، إسلامية كانت أو متغربة، فأنتجت رؤى وثوقية تكبل فعل النهضة ولا تحفزه. فالنهضة تتم حسب الحاجات لاحسب أطر ثقافية جاهزة، فالدولة المحتلة تتمثل نهضتها بمكافحة الاحتلال، والدولة الفقيرة تتمثل نهضتها بتحسين الاقتصاد، فالنهضة ليس مشروعاً جاهزاً نعتنقه بل هو مشروع جديد نقوم بتوليده وفق الضرورات.وبنفس الوقت فلن تتحقق نهضة العالم الإسلامي الحقيقية مازال فيه أزمات شديدة تمنع النهضة الرئيسية فيه ومن تلك الأزمات انتشار الفقر والبطالة والاحتلال الغربي في بعض مناطقه.والحقيقة فإن الغرب ظل على الدوام منتبهاً إلى هذه الحقيقة، وبموجبها يقوم بأعمال كثيرة تعيق هذه النهضة الإسلامية.وبانتظار زوال تلك الأزمات الكبيرة وعملاً على التخلص منها تتصدر واجبات المسلمين اليوم القيام بالنهضة الثقافية والفكرية والعلمية، والتي ترتبط بنهضة فكرية إسلامية حقيقية. كما أن النهضة من حيث التقييم المعياري تدل على حالة ارتقاء بالمجتمع الإنساني. ومن ثم نرى أن فعل الارتقاء هذا يستلزم تعميق القيم المميزة للإنسان،ولن تتحقق النهضة بدون المعرفة، إذ هي محدد من محددات الإنسانية، وكلما انخفضت المعرفة انخفضت درجة ارتقاء الكائن البشري نحو إنسانيته.ولن تتحقق النهضة بوجود احتلال أو استبداد موضوعه الفرد. ولّما كان الإنسان كائناً أخلاقياً تأتي قيمة الفعل الإنساني، بوصفه فعلاً مسؤولاً أخلاقياً، وقابلاً للمعايرة والحكم عليه قيمياً. فالمحدد الأخلاقي يميز الفعل والوجود الإنساني عن الفعل الحيواني الخاضع لمنطق الضرورة الطبيعية. وأخيراً نرى أن لا نهضة إلا بتعميق هذا البعد الأخلاقي عند الأفراد المسلمين. والالتزام بتأكيد الإسلام على الأخلاق الفردية والعمل بقول الرسول الكريم: " إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق".